المدارس في بيت المقدس

في العصرين الأيوبي والمملوكي

تأليف الدكتور عبد الجليل حسن عبد الهادي

مأمون الصاغرجي

كان للمدارس التي أنشئت في الحواضر العربية والإسلامية منذ أواخر القرن الرابع وحتى القرن الثالث عشر الهجري أثر بارز في ازدهار الحركة الفكرية ، يضاف إلى جانبها المعاهد الأخرى ، كالمساجد ودُور القرآن ، ودُور الحديث ، والبيمارستانات التي تعد بمثابة الكليات والجامعات في وقتنا الحاضر .

والمقصود بالمدارس « تلك الدور المنظمة التي يأوي إليها طلاب العلم ، وتدر عليهم المعاليم والأرزاق ، ويتولى تدريسهم وتثقيفهم فئة صالحة من المدرسين والعلماء ، يختارون بحسب شروط الواقف ممّن يحسنون القيام بالغرض الذي ندبوا للدعوة إليه ، ويجازون بما تعلموا من ضروب المعارف الإلهية والبشرية »[1] .

إن القدس واحدة من تلك الحواضر العربية الإسلامية ، بل هي من أجلّها خطراً في نظر المسلمين بعد مكة والمدينة ، إذ يُعّد مسجدها الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين الذي تشد إليه الرحال[2] مما حدا بالسلاطين إلى توجيه عنايتهم بها ، وإنشائهم العديد من المدارس والمعاهد العلمية فيها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تحدث كثير من المؤرخين عن المدارس وإنشائها في تضاعيف كتبهم التاريخية ، كابن الأثير وأبي شامة ، وابن خلكان ، وابن شداد ، والذهبي ، والصفدي ، وغيرهم ، إلا أنهم لم يفردوا المدارس والمعاهد الأخرى بالتصنيف ، ولعل أول من أفرد المدارس بالتصنيف هو النعيمي عبد القادر بن محمد (ت ٩٢٧ هـ) في كتابه المسمّى : « الدارس في تاريخ المدارس » أو « تنبيه الطالب وإرشاد الدارس فيما بدمشق من الجوامع والمدارس »[٣] ثم أتى من بعده عبد القادر بدران (ت ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧ م) فألف كتابه « منادمة الأطلال ومسامرة الخيال » في معاهد الشام الدينية القديمة[٤] .

وربما كان أول من أحصى مدارس القدس مؤرخها وقاضيها مجير الدين العليمي (ت ٩٢٨) سنة ٩٠٠ هـ قبيل انتهاء عهد المماليك[٥] ؛ أما في عصرنا الحاضر فقد نشرت مجلة المجمع العلمي العربي (مج : ٢٠ ص ٢٣٤) مقالاً للدكتور أسعد طلس ، تحدث فيه عن دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها ، وأشار فيه إلى بحث يعده الأستاذ أحمد سامح الخالدي (ت ١٩٥١ م) عن مدارس القدس ومعاهدها[٦] . وممن كتب عن مدارس القدس ومعاهدها الأستاذ عارف العارف في كتابه « المفصل في تاريخ القدس » ـ طبع سنة ١٩٦١ م ـ حيث أفرد لها فصلاً (ص ٢٣٦ ـ ٢٥٥) وكذلك الدكتور كامل العسلي في كتابه الذي صدر مؤخراً عام ١٩٨٠ م « معاهد العلم في بيت المقدس »[٧] .

لقد كان الدكتور عبد الجليل كسلفه الأستاذ عبد اللطيف الطيباوي ، من أولئك الغُيُر الذين يحزُّ في نفوسهم أن يروا اليد الآثمة وهي تعيث في معالم القدس ، فتعرضها للتشويه والزوال ، حيث تحدث

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأستاذ الطيباوي في مقاله الذي نشرته مجلتنا الزاهرة (مج : ٥٤ ص ٧٥٣ ، مج : ٥٥ ص ٢٣) عن « القدس الشريف في تاريخ العرب والإسلام » منذ عهوده الأولى حتى عصرنا الحاضر ، بينما يركز بحث الدكتور عبد الجليل على الحركة الفكرية ومؤسساتها في مدينة القدس ، ومن خلال العصرين الأيوبي والمملوكي ، أي منذ تحرير بيت المقدس من الصليبيين سنة ٥٨٣ وحتى ٩٢٣ هـ .

إن عملاً كهذا يعتد في طليعة الأعمال التي تدل على أصالة القدس وعروبتها . وكأن الدكتور عبد الجليل يردد مع العلامة عبد القادر بدران قوله :

إليكم يابني وطني كتاباً ... يذكركم بآثار الجدود
فكونوا مثلهم أدباً وعلماً ... ولا ترضوا منادمة الجمود[٨]

لم يشأ الدكتور عبد الجليل التحدث عن المدارس وفق تقسيم موضوعي كما أشار في مقدمته ، كأن يتحدث عن مدارس الفقه ، ومدارس العربية ، ودور القرآن ، ودور الحديث وغيرها ، وذلك لعدم اقتصار كل مدرسة على تدريس مذهب معين ، أو علم واحد من العلوم ، « فالمدرسة الصلاحية مثلاً كانت تدرس العلوم الشرعية والعلوم اللغوية والعلوم الرياضية ، والمنطق ، وعلم الكلام ، ولم يقتصر التدريس فيها على المذهب الشافعي الذي وقفت عليه »[٩] . ويلفت انتباه القارئ إلى أن هذه الدراسة « لم تُعن بالحديث عن الطراز المعماري لها أو مايتصل بذلك ، فمجال ذلك رحب لدى الباحثين في علم الآثار »[١٠] .

قسم الدكتور بحثه إلى ثلاثة أبواب ، في كل باب ثلاثة أو أربعة فصول ، حيث مهد للباب الأول بنظرة عامة إلى نظام التدريس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وطرقه ، وأحال على كتابه المخصص عن « الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي » تجنباً للتكرار ، ثم تحدث في الفصل الأول عن التدريس في موضوعاته وكتبه ، فذكر عديداً من كتب القراءات ، والحديث ، والفقه بمذاهبه الأربعة ، وعلوم اللغة العربية ، والأدب ، والتاريخ ، والعلوم العقلية والرياضية والطبية ، والتصوف وغيرها . وتناول في الفصل الثاني المشتغلين بالتدريس وأثرهم السياسي والاجتماعي ، فتحدث عن لقب « الشيخ » الذي يعد من أعلى المراتب العلمية ، ثم المدرس ونائب المدرس والمعيد . إذ كان الشيوخ يعينون بمرسوم أو توقيع سلطاني خاص ، ويكون في احتفال خاص يعقد في المسجد الأقصى . وكان الشيوخ والمدرسون يشاركون في الاجتماعات السياسية والاجتماعية التي تعقد في المسجد الأقصى[١١] . ثم انتقل إلى الحديث عن الطلاب وحريتهم في اختيار العلوم التي يرغبون فيها ، والأوقاف الكثيرة التي حبست عليهم ، والمستوى العلمي الذي تحلوا به . وخُصص الفصل الثالث للإجازات العلمية فتحدث عن مفهومها اللغوي والاصطلاحي ، وعدد أنواعها وبين الأسلوب المتبع في إعطائها .

أما الباب الثاني فقسمه إلى ثلاثة فصول أيضاً ، خصص الفصل الأول للحديث عن المدارس في بيت المقدس وأثرها في الحركة الفكرية في العصر الأيوبي ، إذ رتبها ترتيباً تاريخياً ، بحسب إنشائها الزمني ، وتحدث عن الشيوخ والمدرسين والمعيدين الذين تناوبوا عليها ؛ فذكر في طليعة هذه المدارس المدرسة الصلاحية التي أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد تحرير بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ ، والتي تعد من أشهر مدارس بيت المقدس ، وأعظمها أثراً في الحركة الفكرية[١٢] ، ويشير إلى أنها أصيبت « بأضرار بالغة من قبل العدو الصهيوني المحتل سنة ١٩٦٧ م »[١٣] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وخصص الفصل الثاني للمدارس التي أنشئت في القرن السابع الهجري . أما الفصل الثالث من هذا الباب فأفرد للحديث عن الخوانق والزوايا في بيت المقدس .

ونهج المؤلف في الباب الثالث نهجه في الباب السابق ، فذكر مدارس بيت المقدس في العصر المملوكي ، فقسمه إلى أربعة فصول ، أولها للمدارس التي أنشئت في القرنين السابع والثامن الهجريين ، والثاني لمدارس القرن التاسع الهجري ، ثم تحدث عن دُور القرآن والحديث في الفصل الثالث وتناول في الفصل الرابع الخوانق والزوايا والرباطات[١٤] .

ثم أرفق المؤلف في خاتمة بحثه خريطة لمدينة القدس مثبتاً عليها المدارس في أماكنها ، وكلل جهوده بأن أتبع كتابه فهارس فنية شاملة تيسر للباحث الوصول إلى بغيته من أقرب طريق .